الشعبوية: هل تلتهم الديمقراطية؟

طلال أبوغزاله

هناك موجة شعبوية معاصرة تغزو الآن البلدان الغربية وتلقي بظلالها على بقية العالم. هذه الشعبوية لا يمكن ربطها بناخِبين معينين، أو بملامح اجتماعيه–نفسيه محددة، أو ببعض "الأنماط السياسية". كما لا يمكننا أن نعزوها لأيديولوجية محدده بوضوح مثل الاشتراكية، الليبرالية أو الليبرالية الجديدة. لكن الشعبوية تتمظهر من منطلق داخلي معروف وقابل للتحديد: فالشعبويون ليسوا بالضرورة مُعادين فقط ل "النخب"–أي الخبراء والشخصيات العامة الذين يساعدون مَن حولهم على التوغل في المسؤوليات الثقيلة التي تواكب الحكم الذاتي، مع أنهم أساسا مناهضين للتعددية–. لأن ادعائهم الثابت أنهم فقط من يمثلون الشعب الحقيقي.

وعندما يقول أحد الشعوبيين في لبنان، في مقابلة تلفزيونية، ويرفض دعوة الرئيس اللبناني لهم بترشيح فريق للتفاوض معه يدعي بأن الرئيس ليس لديه الولاية (التفويض) لاتخاذ القرارات. إنهم يتخذون القرارات والحكومة تنفذ. وباتت المشكلة بأنهم (الشعوبيين) ونحن لا نعلم بعد ما هو نظام الحوكمة الخاص بهم.

خلال مؤتمر في لشبونة مؤخراً، أثار شون روزنبيرغ، الأستاذ في جامعه يو سي ايرفين الأمريكية، جمهوره بتحدٍ لافتراض أساسي حول أمريكا والغرب. وكانت نظريته ان الديمقراطية اليوم تلتهم نفسها –ولن تدوم طويلاً.

وبقدر ما قد يرغب منتقدو الرئيس ترامب الليبراليون في وضع علل أمريكا أمام بابه، يقول روزنبيرغ ان الرئيس ليس سبب سقوط الديمقراطية –حتى لو كانت حملته الشعبوية الناجحة المناهضة للمهاجرين أحد أعراض تراجع الديمقراطية–. "فمن يُلام هم نحن"، على حد قوله، "لأننا الشعب".

ولا ريب في أن الديمقراطية عمل مستمر وشاق. وبقدر ما يتم تهميش "النخب" المجتمعية بشكل متزايد، كذلك اثبتت فئات الشعب انها غير مجهزة معرفياً وعاطفياً لاجتراح ديمقراطية حسنه الأداء. ونتيجة لذلك، انهارت المركزية وتحول الملايين من الناخبين المحبطين والحائرين بسبب يأسهم، إلى قوائم الشعبويين اليمينيين.

خلال المؤتمر الذي عقد مؤخرا حول الأمن والسلام، قال الرئيس ماكرون أنه من المتوقع ان تسود الثقافة الغربية في العالم ولكن ولسوء الحظ ستظهر ثقافات أخرى كذلك.

في الديمقراطيات الراسخة مثل الولايات المتحدة، ستستمر الحوكمة الديمقراطية في التراجع الفاضح حيث تفشل في نهاية المطاف علي يد الشعبويين الذين يدّعون انهم يتميزون بمركز وسطي بين اليسار واليمين يعتبرونه الفيصل بين الخطأ والصواب.

النصف الأخير من القرن العشرين كان العصر الذهبي للديمقراطية. ففي سنة 1945، ووفقا لأحدي الدراسات الاستقصائية، لم تكن هناك سوى 12 ديمقراطية في العالم بأسره. لكنه بحلول نهاية القرن كان هناك 87. وبعد ذلك حدث الانقلاب الكبير: ففي العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، توقف التحول إلى الديمقراطية بصوره مفاجئة ومشؤومة.. وانعكس اتجاهه بشكل تدريجي.

لقد استولى السياسيون اليمينيون الشعبويون على السلطة، أو هددوا بالاستيلاء عليها، في بولندا والمجر وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا والبرازيل

والولايات المتحدة. وكما لاحظ روزنبيرغ، "إذا اعتمدنا بعض المقاييس، فان الحصة الشعبوية اليمينية من التصويت الشعبوي في أوروبا عموما قد تضاعفت أكثر من ثلاثة اضعاف من 4% في 1998 إلى حوالي 13% في 2018." وفي ألمانيا، ازداد التصويت الشعبوي اليميني حتى بعد نهاية الكساد الكبير، وبعد ان تراجع تدفق المهاجرين الذين دخلوا البلاد.

وعليه فالديمقراطية، كما قدمنا، عمل شاق يستدعي الكثير من أولئك الذين ينخرطون فيه. فهو يتطلب أن يحترم الناس ذوي الآراء المختلفة عن آرائهم، بل أولئك الذين لا يبدون مثلهم. وهي تستلزم أن يُنقّي المواطنون مقادير كبيره من المعلومات لفرز جيدها من السيئ، والصحيح من الزائف، مع الوافر من التفكير والانضباط والمنطق.

اليوم، وبفضل وسائل الاعلام الاجتماعية والتكنولوجيات الجديدة، يمكن لأي شخص لديه امكانيه الوصول إلى الإنترنت نشر مدوّنه الخاص وحشد الاهتمام لقضيته –حتى لو كانت متجذرة في مؤامرة أو مستندة إلى ادعاء كاذب. فالناس يستقون الآن اخبارهم من وسائل الاعلام الاجتماعية بدلا من الصحف المتداولة أو شبكات الاخبار التلفزيونية الثلاث القديمة: (ABC, CBS, NBC) حيث تزدهر الأخبار المصطنعة. وهو المكان الذي

يستمتع فيه الرئيس ترامب تكراراً. وفي حين ان الديمقراطية تستلزم العديد من المتطلبات، تكتفي الشعبوية بمطلب واحد فقط: الولاء، الذي يستدعي الاستسلام للرؤية القومية الجماهيرية.

ما يثير قلقي حول مستقبل الاعلام الاجتماعي هو بأنه لم يتم تصميمه بطريقة تأخذ بعين الاعتبار مصلحة الانسانية. وفي الوقت الحاضر لا يوجد قواعد أو قيم أو أخلاق تعمل على تشكيل مسار وسائل التواصل الاجتماعي. انه عبارة عن تجربة الغرب المتوحش. ونحن والمجتمع بشكل كامل ومن ضمنه نحن المتواجدون في هذه الغرفة اليوم عبارة عن أشخاص لا حول لهم ولا قوة في هذه التجارب الكبيرة.

ما أرغب في مشاركته معكم هو منظور حول كيفية وضع أساس لعمل مستقبل الاعلام الاجتماعي ليكون أكثر مسؤولية وانتاجية وشمولية. وهذا هو منظور ابنتي جمانة، مؤسس محور الانسانية Pivot for Humanity وهي مؤسسة غير ربحية تهدف الى العمل على ضمان الاحترافية في التكنولوجية الاجتماعية .
(www.pivotforhumanity.com)

ما سبّب هذا التحول هو ان الديمقراطية والتمثيل هما في الواقع شيئان مختلفان. فالتمثيل ليس في حد ذاته ممارسة ديمقراطية. ولا تشكل تحركات الشعبويين بأي حال من الأحوال بوادر معادية لمبدأ التمثيل. وطالما هم في المعارضة، فانهم يكررون الشيء القديم الذي تمارسه النخب الشريرة، بل قل النخب الفاسدة. زد على ذلك أن أي نقد لتصرفات الساسة السيئين يتحول تلقائياً إلى نقد مباشر للمؤسسات الديمقراطية نفسها.

وفيما قال كارل ماركس منذ سنوات عديدة بأن الفقر لا يخلق الثورات، لكن ما يفعل ذلك هو الوعي بالفقر. ووظيفة الطاغية والمستبد هو أن يجعلك فقيرا وواجب فريقه هو أن تغض الطرف عن فقرك.

ولن تكون هذه حتى الآن، أو في المستقبل المنظور، لحظه مناسبة للتفاؤل. فما يحدث في جميع انحاء العالم يشير إلى أن اليمين المتطرف مستمر في المسيرة. وعندما يتعلق الأمر بالولايات المتحدة الأمريكية، قد تكون المشكلة أكبر من الرجل الجَدَلي المقيم في البيت الأبيض، وستظل الديمقراطية تحت التهديد بغض النظر عمن يُمسك بعنان السلطة.

ولتستمر الديموقراطية، إننا بحاجة لإعادة ابتكارها وهذه دعوة جادة لجميع القادة والخبراء .

أما فيما يتعلق بالشعبوية، فلم تتحدد بعد ايدولوجيتها ومنهجيتها.